ثقافة وحضارة ووطن

obeikan.com

obeikan.com

ثقافة وحضارة ووطن

جاءت المسيحية إلى مصر مبكرا - فلقد حملها القديس مرقس نفسه إلى مصر - والقديس مرقس هو أحد حواريي المسيح - كما كتب مرقس أيضًا الإنجيل الذي يحمل اسمه.

وواجه المسيحيون في مصر موجة بعد موجة من الاضطهاد في العصر الروماني خصوصا تحت حكم "ديسيوس" و "فاليريان" و "ديوكلتيان" في القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي بدعوى اختلاف الديانة المسيحية عن ديانة الإمبراطورية الرومانية الوثنية، وعندما دخلت الإمبراطورية الرومانية في المسيحية على يد الإمبراطور قسطنطين فإن الاضطهاد قد توقف قليلا ليعود بعدها أشد قسوة تحت دعاوى أخرى.

فلقد حاولت الإمبراطورية الرومانية الخلط بين السلطتين الزمنية والروحية بين ما لقيصر وما لله، إلا أن الكنيسة المصرية رفضت ذلك. وأعلن ذلك الرفض الأنبا اثناسيوس في مواجهة الإمبراطور "قسطانطيوس" الإمبراطور الروماني - فما كان منه إلا أن طارد الأنبا "اثناسيوس" ووضع جائزة لمن يأتيه برأسه - وهكذا ظل "اثناسيوس" نفسه مطاردًا لمدة عشرين عامًا حماه خلالها الرهبان والفلاحون المصريون.

كان اثناسيوس قد كتب إلى إمبراطور بيزنطة يقول له "لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية. ولا تصدر إلينا أمرا بشأن هذه المسائل - لقد أعطاك الله المملكة وعهد إلينا بأمور الكنيسة وليس مسموحا لنا أن نمارس حكمًا أرضيًا وليس لك سلطان أن تقوم بعمل كنسي".

وعلى هذا الأساس فقد أصبحت الكنيسة القبطية مستقلة عن الكنيسة الرومانية وأصبح اسم اثناسيوس علما على القبطية الأرثوذكسية.

وكان من الطبيعي كنتيجة لرفض الكنيسة القبطية الخضوع لسلطان الإمبراطور البيزنطي أن تعرضت تلك الكنيسة لأنواع شتى من الاضطهاد والعنف.

ولكن رغم ذلك استمرت الكنيسة المصرية متمسكة باستقلالها فقد رفض الأنبا (ديوسكورس) خليفة الأنبا اثناسيوس مقررات مجمع كالدونيا سنة ٤٥١م حول طبيعة المسيح وتعرض الأنبا ديوسكورس للحرمان من مجمع كالدونيا كنتيجة لهذا الموقف - ولكن الشعب القبطي وقف مع الأنبا "ديوسكورس" فقد رفض هذا الشعب وجميع الرهبان الاعتراف بقرارات مجمع كالدونيا.

وكانت النتيجة أن قامت قوات الإمبراطورية وعساكرها بإخراج البطريرك "ديوسكورس" من الكنيسة ومن المدينة كلها حتى دون تمكينه من ارتداء حذائه - وتم تنصيب بطريرك جديد مصنوع في روما على رأس الكنيسة المصرية ولكن الشعب في مصر رفض ذلك ومنع هذا البطريرك المصنوع من دخول الكنيسة في الإسكندرية - وهنا تدخل جنود الإمبراطور وأحدثوا مذبحة مروعة للناس على أبواب الكنيسة وأدخلوا البطريرك المصنوع إلى الكنيسة ورغم استمرار الاضطهاد العنيف والدامي تمسكت الكنيسة القبطية بموقفها من قرارات مجمع كالدونيا حول طبيعة المسيح وبموقفها الرافض لدمج السلطتين الزمنية والروحية - وأصدرت الكنيسة المصرية ما سمي بقانون الإيمان لتأكيد ذلك الموقف المستقل والمتميز.

وفي عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل حاول هذا الإمبراطور استثمار انتصاراته الخارجية ضد الفرس ونفوذه وسمعته العالية التي حصل عليها بسبب حملاته العسكرية الناجحة، حاول استثمار ذلك في فرض توحيد الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية بالقوة، إلا أن محاولته أيضًا فشلت برغم ممارسته للاضطهاد الدموي البشع طوال سنوات حكمه من أجل تحقيق ذلك. وعرفت تلك السنوات هروب الرهبان عبر السراديب تحت الأرض بين الكنائس والبيوت هربًا من الاضطهاد البيزنطي دون أن يفرطوا في استقلال كنيستهم وعقيدتهم.

ومحصلة كل هذا - أن الكنيسة المصرية عريقة سبقت كل الكنائس الرومانية والأوروبية - كما أنها كنيسة مستقلة ورفضت كل محاولات الاندماج في الكنائس الرومانية وهي أيضًا تمتلك عقيدتها الخاصة حول طبيعة المسيح التي تختلف اختلافا

جذريا عن عقائد الكنائس الرومانية والأوروبية فيما بعد وكذلك هي كنيسة عانت من الاضطهاد الدموي والكبت والقهر على يد الإمبراطورية الرومانية.

❊ ❊ ❊

وفي الفترة التي عانى فيها الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط في مصر ومعه الشعب القبطي من اضطهاد الإمبراطور البيزنطي هرقل جاء الفتح الإسلامي بالخلاص. واستقبل أقباط مصر الفاتحين المسلمين باعتبارهم مخلصين من طغيان الرومان.

وتم تأمين الأنبا بنيامين والرهبان على أنفسهم وكنائسهم وفقا لسماحة الإسلام - كما عاش الشعب المصري كله في ظل العدل والمساواة والحرية والسماحة وهي السمات الأصلية للدين الإسلامي ولم يمض وقت طويل حتى كان الشعب كله في مصر من أسلم ومن ظل مسيحيًا يصبح جزءًا لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية وتصبح اللغة العربية هي اللغة السائدة - وعلينا أن نقارن هذا بتمسك الشعب المصري بعدم الاندماج في الثقافة الرومانية والهيلنيستية قبل ذلك لأكثر من ألف عام.

إذا كان الاندماج والانخراط في الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية سريعا وكاملا وضم كل الشعب المصري من أسلم ومن لم يسلم - وأبدع المصريون المسلمون منهم والمسيحيون في إطار الثقافة والحضارة الإسلامية أيا إبداع - لدرجة أن الأقباط كان منهم علماء اللغة العربية والفقه الإسلامي أيضًا بل ووصل الأمر إلى حد وجود رواق للأقباط في الأزهر الشريف وبدهي أنه طوال الحكم الإسلامي لم تحدث حادثة واحدة تتسم بالطائفية.

وكانت أوربا تعرف ذلك وتدركه وتعمل على ضربه - فلما جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق لم يسمح الصليبيون للأقباط بزيارة بيت المقدس لأن الصليبيين اعتبروا الأقباط كفارًا لأنهم يؤمنون بعقيدة مختلفة عن العقائد الأوروبية حول طبيعة المسيح.

كما استهدفت الحملة الصليبية ضمن ما استهدفت تدمير الكنيسة القبطية المصرية وتذويبها في الكنائس الأوروبية - فقد قام الصليبيون بخطف ٥٠٠ طفل من دمياط

أثناء الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩م وقاموا بتعميدهم وفقًا للعقائد الكاثوليكية.

كما أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا حين احتل دمياط قام بفرض بطريرك كاثوليكي على المدينة.

ومع ظهور الاستعمار الإنجليزي بعد ذلك في القرن التاسع عشر حاول الاستعمار الإنجليزي أن يستخدم التبشير في ضرب الكنيسة القبطية في مصر وأن يزرع كنائس بروتستانتية في التربة المصرية - ولقد تصدت الكنيسة القبطية لهذا الأمر وقاومت بعثات التبشير التي شكلت خطرًا على عقيدتها وقام البطريرك كيرلس الرابع بشراء مطبعة لمواجهة مطبوعات بعثات التبشير التي تشكك في العقيدة الأرثوذكسية وهي عقيدة الكنيسة المصرية. إذن فوقائع التاريخ والعقيدة تقول:

- إن الكنيسة المصرية - كنيسة عريقة - أقدم من كل الكنائس الأوروبية.

- إنها كنيسة مستقلة في عقائدها حول طبيعة المسيح بشكل خاص - وتختلف اختلافًا كاملاً عن عقيدة الكنائس الأوروبية الكاثوليكية والبروتستانتية.

- إنها كنيسة تقر بالفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

- إنها كنيسة عانت من الاضطهاد ومحاولات التذويب على يد الرومان والصليبيين والاستعمار.

- إنها كنيسة لم تخضع لأي نوع من الاضطهاد على يد الفتح الإسلامي بل العكس شاركت بحماس واندمجت في الحضارة الإسلامية وأصبحت اللغة العربية لغتها - بل وأصبح هنا رواق للأقباط في الأزهر ونبغ الكثيرون من الأقباط في الفقه واللغة.

ومحصلة كل هذا أن المسلم والمسيحي في مصر يجمعهما الانتماء للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن.

* * *